مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 20، العدد 78 (ربيع 2009)، ص 70

وليد الخالدي
"من 1947 إلى 1897"*

I

● يشرفني أن يُطلب مني افتتاح هذا المؤتمر المكرس لموضوع بالغ الخطورة، وأن أحيّي حماسة وإخلاص هذه العصبة من الأخوات والإخوة الذين جعلوا، بالتزامهم الرائع، انعقاد المؤتمر أمراً ممكناً.

● نعم، إنها كانت – ولا زالت – هي النكبة. نعم، إنها كانت ولا زالت مستمرة في كونها "ستون عاماً من الاستلاب والمقاومة"، ودفاع الفلسطينيين واللبنانيين عن الأرض والنفس. لكن، بما أنني دينا صور آتٍ من الماضي السحيق، أرجو أن تسمحوا لي بأن أذكركم بأن 1947 – 1948 كانت مجرد ولادة النكبة، وأن تكوّنها في الرحم يرجع إلى المؤتمر الصهيوني الأول المنعقد في بازل، في سويسرا، في سنة 1897 – الأب البيولوجي للنكبة.

● نعم، إنها نكبة ملايين الفلسطينيين وعشرات الملايين من أهل الريف والمدن المجهولين، من اللبنانيين والسوريين والمصريين والأردنيين، الذين عانوا، مباشرة وتكراراً، جرّاء التداعيات المدمرة للنكبة منذ 1947 – 1948. نعم، إنها النكبة في نطاق أرحب بالنسبة إلى ملايين العرب والمسلمين (شيعة وسنّة)، وإلى أعداد لا حصر لها من شعوب وأعراق مختلفة، بما في ذلك عشرات الآلاف من البريطانيين الذين أغضبتهم المجازر والاعتداءات الوحشية التي ارتكبتها الآلة الإسرائيلية الساحقة مؤخراً ضد غيتو قطاع غزة.

● لكن، علينا أيضاً أن نتذكر مَن ليست هذه المناسبة نكبة بالنسبة إليه (بالإضافة إلى تلفزيون سكاي SKY والـ BBC): ففي 15 أيار/مايو من السنة الفائتة، وصف جورج دبليو بوش، في خطاب له أمام الكنيست في القدس، "هذه الذكرى السنوية الجليلة الأثر" بأنها ذكرى "تحقُّق وعدٍ قديمٍ أُعطي لإبراهيم وموسى وداوود – وعدٍ بوطنٍ للشعب الذي اختاره الرب." وفي 21 تموز/يوليو من السنة الفائتة، أخبر غوردون براون الكنيست "يسعدني جداً بصفتي رئيس الوزراء البريطاني... أن أهنئكم بمناسبة الذكرى الستين هذه، على الإنجاز الذي تحقق في سنة 1948... إن الحلم العتيق قد تجسد، الوعد القديم قد تحقق."

● يبدو أن جورج وغوردون لديهما معلومات داخلية مستمدة من أوساط موثوق بها عن خالق سماوي للنكبة. صحيح أنه ثارت شكوك فيما إذا كان توني بلير حظي مثل جورج بصلات مع هذه الأوساط السامية، لكن هل غوردون أيضاً على صلة بها؟؟

● ما هو لافت أنه بينما تبقى هوية مَن حقق "الوعد القديم" في قول غوردون ملتبسة، فإن جورج يذكر، بلا لبس أو إبهام، مَن هو الذي حقق هذا الوعد – ولعل هذا ما يليق برئيس بلد لا يكل عن تهنئة ذاته على الفصل بين الكنيسة والدولة.

● هل هذا، يا ترى، هو السبب في أن واشنطن ولندن، سواء بسواء، خاليتا الذهن كلياً من أي مؤشر يجيب عن سؤال لا تفتآن تطرحانه على أنفسهما، وهو: "لماذا (المسلمون والعرب) يكرهوننا؟؟"

II

● لقد كان قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في 29 تشرين الثاني/نوفمبر 1947 البوّابة الكبرى للنكبة. وكانت بريطانيا، بالطبع، هي من ألقى بالقضية الفلسطينية في حضن الأمم المتحدة للهروب من النتائج الكارثية لسياسة الوطن القومي اليهودي المتعجرفة التي أطلقتها قبل ثلاثة عقود، في سنة 1917، من خلال كائن بشري يدعى أرثر جيمس بلفور. فقد أخرج قرار التقسيم لسنة 1947 بريطانيا من الهوّة السوداء التي وضعت نفسها بنفسها فيها، إذ إن القرار قضى ظاهرياً بإيجاد دولتين (يهودية وعربية) تخلفان الانتداب في فلسطين، كما أنه ينهي دورها هناك أملاً بالتهرب من المسؤولية الأخلاقية تجاه الضحية الرئيسية لسياستها، أي أهل البلد الفلسطينيين.

● ومن اللافت أنه لا جورج ولا غوردون أشارا في خطابيهما في الكنيست في سنة 2008 إلى قرار التقسيم لسنة 1947، الذي أقحمه سلف جورج، هاري ترومان، داخل حناجر العديد من الدول الأعضاء في الجمعية العمومية، والذي تظاهر سلف غوردون، رئيس الوزراء حينئذ كليمنت أتلي، بعدم قبوله من خلال الامتناع من التصويت، بينما حرص على أن يصوت شركاء بريطانيا في الكومنولث لمصلحته.

● إن قرار التقسيم هو واحد من الأساطير التأسيسية لإسرائيل في الغرب بزعم أنه كان منصفاً وعملياً وأخلاقياً وقانونياً، وأن اليهود قبلوه بينما رفضه الفلسطينيون والعرب. لكن الفلسطينيين والعرب رفضوه لأنه يقيناً لم يكن منصفاً، ولا عملياً، ولا أخلاقياً، ولا قانونياً. بل إن العدوان والاعتداء كانا لبّ مفهوم قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة، وآليات تطبيقه المزمعة.

سيداتي سادتي:

● قُسِّمت فلسطين الانتدابية تحت الحكم البريطاني إلى 16 قضاء، فكم كانت حصة الدولة اليهودية من هذه الأقضية بموجب قرار التقسيم؟ الجواب أنه خصص تسعة منها للدولة اليهودية، بينما لم يكن هناك أكثرية يهودية إلاّ في قضاء واحد (يافا – تل أبيب) من أصل الـ 16 قضاء، أمّا في الأقضية الثمانية الأُخرى فكانت نسبة اليهود على التوالي هي: أقل من 1٪ (بئر السبع)؛ 13٪ (صفد)؛ 16٪ (الناصرة)؛ 17٪ (طولكرم)؛ 22٪ (الرملة)؛ 30٪ (بيسان)؛ 33٪ (طبرية)؛ 47٪ (حيفا).

● ولم يكن اليهود في أي من الأقضية التسعة التي وهبتهم إياها هيئة الأمم لتُشَكِّل دولتهم، يملكون أغلبية الأراضي، وكانت نسبة ملكيتهم في الأقضية التسعة هذه، هي: أقل من: 1٪ (بئر السبع)؛ 14٪ (الرملة)؛ 17٪ (طولكرم)؛ 18٪ (صفد)؛ 28٪ (الناصرة)؛ 34٪ (بيسان)؛ 35٪ (حيفا)؛ 38٪ (طبرية)؛ 39٪ (يافا – تل أبيب).

● وكانت الأغلبية الساحقة من الجماعة اليهودية في فلسطين تقطن في ثلاث مدن: حيفا، وتل أبيب، والقدس. أمّا السكان اليهود خارج هذه المدن الثلاث فكانوا القلّة. وكانت مساحة مجمل الأراضي التي يملكها اليهود في فلسطين في سنة 1948 لا تتجاوز 1.6 مليون دونم (الدونم يعادل 1000 متر مربع)، بينما اشتملت المناطق المخصصة للدولة اليهودية في قرار التقسيم على أراضٍ مساحتها 15 مليون دونم. وبالتالي، فإن ما قالته الأمم المتحدة عملياً لـ "الييشوف" (الجالية اليهودية في فلسطين) كان: هيّا خذوا هذه الـ 13.4 مليون دونم إضافية التي لا تملكونها في الدولة التي أعطيتم إياها، من الناس الذين يملكونها – من الناس الذين يعيشون فيها ويعتاشون منها.

● ومع ذلك، فإن المقاومة الفلسطينية لهذا الغزو – لهذا الإلحاق القسري لأراضيهم بالدولة اليهودية – كانت (ولا تزال) يُنظر إليها باعتبارها عدواناً، بينما ينظر إلى الهجوم اليهودي الذي شنه "الييشوف" لتوسيع أراضيه بمقدار عشرة أضعاف، ضد رغبات السكان الأصليين، باعتباره دفاعاً عن النفس. ولا يزال حتى اللحظة يوصف بأنه "دفاع عن النفس" كل تحرك تقوم به الآلة العسكرية التابعة لإسرائيل – خليفة "الييشوف".

● تستمد إسرائيل شرعيتها جزئياً من "قبول" القيادة الصهيونية خطة التقسيم. وهذا "القبول" ليس مستغرباً لأن التقسيم كان الحل الصهيوني "الرسمي"، أي اللفظي للمشكلة الفلسطينية. لكن من المؤكد أن قيادة "الييشوف" لم يكن في نيّتها التزام حدود التقسيم المقترحة، كما يبدو واضحاً من الأوامر العملانية للهاغاناه كما وردت في "خطة دالِتْ"، وهي الخطة العامة لاحتلال فلسطين عسكرياً، والتي بدئ بتنفيذها قبل ستة أسابيع من انتهاء الانتداب.* بالإضافة إلى ذلك، بينما قبلت القيادة الصهيونية لفظياً التقسيم، فإن حزبَي الحركة التصحيحية (لاحقاً "حيروت" في سنة 1948)، وأحدوت هعفودا، وهما الحزبان الثاني والثالث من حيث الحجم (بعد الحزب الحاكم "الماباي") في "الييشوف"، كانا يعارضانه بشدّة، ويطالبان جهاراً بدولة يهودية في كامل أرض إسرائيل.

● لقد أطلق إقرار الأمم المتحدة خطة التقسيم ما بات يُعرف بـ "طور الحرب الأهلية" في الحرب الفلسطينية الأولى، والذي استمر حتى إعلان قيام دولة إسرائيل في 14 أيار/مايو 1948. وخلال تلك الفترة، أدت العمليات المشتركة التي قامت بها الهاغاناه، وما دعي الجماعات "المنشقة"، أي الإرغون وشتيرن، إلى تمزيق نسيج المجتمع الفلسطيني الذي كان قائماً في فترة الانتداب، وإلى إطلاق عملية الطرد الجماعي للفلسطينيين، واحتلال المدن العربية وعشرات القرى العربية، وإحكام السيطرة اليهودية على المناطق المخصصة للدولة اليهودية، وعلى مناطق شاسعة خارجها، وذلك بموجب "خطة دالت" الآنفة الذكر.

● إن الحرب النظامية مع الدول العربية التي بدأت في 15 أيار/مايو 1948 ما كانت لتندلع لو أن هذه الأحداث التي سبقتها لم تقع. ولقد كانت نتيجة الحرب النظامية محسومة لمصلحة إسرائيل قبل بدايتها. إن "الخطر الوجودي" على الدولة اليهودية الوليدة، والذي زُعم أن الجيوش العربية في سنة 1948 كانت تمثله، يحتل المقام الأول في الأساطير الصهيونية والإسرائيلية. غير أن هذا الخطر، شأنه شأن "إنصاف" و"أخلاقية" و"قانونية" قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة، هو مجرد أسطورة وخرافة.*

III

● في مؤتمر بازل لسنة 1897، والذي أسس الحركة الصهيونية، كان هناك مندوبان فقط من أصل 199 مندوباً، مولودان في فلسطين. وبعد خمسين عاماً، في 14 أيار/مايو 1948، كان هناك شخص واحد فقط من الـ 37 من الآباء المؤسسين الموقعين إعلان استقلال إسرائيل في تل أبيب، من مواليد فلسطين.

● وهذا يوجز بدلالة واضحة، طبيعة الحركة الصهيونية: إنها لم تكن ظاهرة محلية. إنها لم تكن أصلاً فلسطينية.

● لقد كانت الصهيونية، ومن دون شك، حركة قومية، لكن أي نوع من الحركات القومية؟

● إنها لم تكن حركة تحرير وطني، أو حركة حق تقرير المصير ضد قوة إمبريالية أو استعمارية (مثل معظم الحركات الوطنية الأفرو – آسيوية).

● إنها لم تكن ثورة مستوطنين ضد الحاضرة الأم (مثل الثورة الأميركية).

● إنها لم تكن انتفاضة ضد احتلال عسكري وحشي وخانق.

● إنها لم تكن انفصالاً عن دولة، أو إمبراطورية متعددة القوميات، مثل الحركات ضد الإمبراطوريتين النمساوية – الهنغارية والعثمانية.

● إنها لم تكن تأكيداً لهوية أصلية، أو خاصة بجماعة، أو أقلية ضد جيرانها، مثل الحالتين الكردية والباسكية.

● إنها لم تكن حركة بعث وتوحيد (risorjimento) تهدف إلى توحيد أقاليم أمة مجزأة، مثل حركة التوحيد الإيطالية.

● إنها حركة ذات منابع علمانية وطوباوية واشتراكية، لكنها أيضاً حركة مدفوعة بدوافع إثنية – قومية دفينة غذّتها قرون من التمييز، والاضطهاد، والتخويف، والإهانات، والطرد الجماعي (في الأغلب في أوروبا المسيحية)، وسيّرتها حاجة ملحة إلى الهروب من وضع أقلية مُهانة ومذلة.

● وفي الوقت نفسه، شاركت في تكوينها تيارات قوية دينية، وروحية، وحتى ميسيائية. وكانت المحصلة مزيجاً من هذه التيارات، ومن مكونات علمانية وقومية، ليس من السهل تحليله.

● لقد كان شعار اليمين الديني الصهيوني (حزب مزراحي) خلال فترة الانتداب هو "أرض إسرائيل لشعب إسرائيل وفقاً لتوراة إسرائيل." لكن المضامين الدينية الميسيائية الخلاصية (messianic) لم تكن بالتأكيد منحصرة في الأحزاب الدينية. فاليمين العلماني بقيادة مناحم بيغن دعا إلى "إعادة أرض إسرائيل بكاملها إلى أصحابها الذين منحهم الرب إياها"، وحاييم وايزمن، العالم العلماني (في الحقيقة الملحد)، صرح أمام اللجنة الملكية البريطانية أن "صك ملكيتنا هو وعد إلهي"، بينما أعلن بن – غوريون، الاشتراكي غير المتدين، آكل لحم الخنزير، أن "التوراة هي [وثيقة] انتدابنا".

● يُنظر إلى حزب بن – غوريون، حزب ماباي "العلماني" "الاشتراكي"، تقليدياً، باعتباره الحزب المؤسس للدولة. لكن ما هو معروف أقل هو حقيقة أن الائتلاف الصهيوني الحاكم منذ سنة 1935 وحتى نهاية الانتداب، كان ما يعرف في إسرائيل باسم "الائتلاف التاريخي"، الذي كان الحزب العمالي "ماباي"، وحزب مزراحي الديني هما الشريكان الرئيسيان فيه.

● وما يميز الحركة الصهيونية بصفة خاصة من ناحية الطيف العلماني – الديني هو أولاً، الحنين إلى بلد معين (فلسطين) لدى اليهود المنتشرين في مختلف القارات، وثانياً، التصميم العنيد الصهيوني على "العودة" إليه. فحتى في فترة ما قبل بلفور، ما قبل الحرب العالمية الأولى، عندما كانت الصهيونية في حالة عجز سياسي وعسكري، بدا واضحاً عليها الشعور بالحق الحصري (exclusive entitlement)، وبالاستعلاء الأخلاقي الذي لم يكن انعكاساً للمواقف الأوروبية السائدة آنذاك تجاه الشعوب غير الأوروبية فحسب، بل كان أيضاً شعوراً متجذراً بقوة في قناعة بحقٍّ مسبق بدائي وأوّلي في ملكية البلد، وعمياء، في الوقت نفسه، عن حق السكان الفلسطينيين الأصليين فيه.

● ثمة مغامرات كثيرة شبيهة بالمغامرة الصهيونية، نخص بالذكر منها هجرة المستوطنين الإنكليز إلى أميركا الشمالية، وأستراليا، ونيوزيلاند. لكن بينما أوجه الشبه هنا واضحة، فإنها تنسحب على آليات الاستيلاء والاستعمار أكثر ممّا تنسحب على الدوافع المحركة لأولئك المستوطنين، والتي لم يكن بينها النزعة العرقية السلفية "الاستردادية" (atavistic irredentist dimension) الصهيونية. لقد نظر المستوطنون الإنكليز بالفعل إلى أميركا باعتبارها أرض الميعاد، لكنهم لم يعتقدوا أن أصلهم يرجع إلى تلك البراري.

● بعد عقود من التفكير في الموضوع، وآخذاً في الاعتبار عدم وجود مثيل للحركة الصهيونية بين الحركات القومية الأُخرى، أجد أن أقرب ما يشبهها هو إعادة احتلال شبه جزيرة إيبيريا (Iberian Reconquista) – أي إسبانيا الأندلس والبرتغال – في القرون 13 حتى 16 الميلادية على يد مملكتي كاستيل (قشتالة) وأراغون، بما اتسم به ذلك من مزيج من الحوافز الدينية والقومية، ودافع قاهر "لاسترداد" إقليم بدا طويلاً كأنه فُقد إلى الأبد، وجشع إلى الأرض، وشعور بأن هذا الإقليم كان سابقاً "ملكاً" لهما، ولا مبالاة عديمة الشفقة تجاه سكانه الذين نظر إليهم باعتبارهم مغتصبين وغرباء وعقبات في طريق تقدم المسيرة.

IV

● الحد الفاصل في مقادير حياة الحركة الصهيونية كان إعلان بلفور في سنة 1917، والذي رأى غوردون براون من الملائم تجاهله عندما احتفى بعيد ميلاد إسرائيل الستين في الكنيست. لقد نقل إعلان بلفور الصهيونية بين عشية وضحاها من حلم يقظة إلى إمكان قابل للتحقق، بفعل حصولها على تأييد القوة الأعظم في ذلك الوقت. ومع إعلان بلفور، خطت الصهيونية خطوات جبارة في اتجاه ما سماه السيد براون "إنجاز 1948".

● إن غطرسة أسلاف السيد براون في وايت هول تجاه الفلسطينيين تتجلى في أكمل صورها في كلمات بلفور ذاته، التي خطّها في سنة 1919:

إن الصهيونية، سواء أكانت مصيبة أم مخطئة، متأصلة في تقاليد ضاربة في القدم، في حاجات راهنة، في آمال مستقبلية ذات أهمية أكبر كثيراً من رغبات وتحيّزات الـ 700.000 عربي الذين يسكنون الآن في ذلك البلد العتيق.

● وفي المذكرة نفسها، يتابع بلفور قائلاً:

مهما تكن المراعاة الواجب إبداؤها لآراء أولئك الذين يعيشون هناك (أي، في فلسطين)، فإن القوى العظمى في اختيارها للقوة المنتدبة لا تنوي، كما فهمت، أن تشاورهم.

● إن "إنجاز 1948"، الذي امتدحه السيد براون، له، كما نستطيع أن نفهم من هذه الكلمات، نسب بريطاني مديد.

● ممتطية أكتاف بريطانيا الإمبريالية المنتدبة على فلسطين، بدأت الصهيونية حربها ضد الفلسطينيين بالوكالة – بالحراب البريطانية. وكان الإكراه جزءاً عضوياً من تولي بريطانيا الانتداب على فلسطين، ومن دون الالتفات إلى رغبات الفلسطينيين.

● كان حكم بريطانيا لفلسطين مدمراً أكثر من حكم أي نظام كولونيالي آخر على امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط (بما في ذلك ليبيا موسوليني، والجزائر "الفرنسية" التي ضُمّت إلى فرنسا الأم).

● وعلى الرغم من أن وجود الصهيونيين على الأرض في المناطق الريفية كان في البداية ضئيلاً جداً، فإنهم اتبعوا في وقت مبكر أسلوباً لامعاً للسيطرة على الريف في أي مواجهة مقبلة مع الفلاحين الفلسطينيين، وأعني به نظام الكيبوتس، القائم على نماذج بروسية اتُّبعت للسيطرة على الفلاحين البولنديين في بروسيا الشرقية. فقد قامت شبكة الكيبوتسات – المُدارة والمموَّلة مركزياً – على نقاط قوية في أماكن استراتيجية مختارة في جميع أنحاء فلسطين، وتكاثرت النقاط بفضل استمرار تدفق الرواد (الحالوتسيم)، الذين تلقوا تدريباً خاصاً في أوروبا قبل هجرتهم إلى فلسطين وتوزّعهم على الكيبوتسات.

● لقد كان الانتداب في الأساس حكماً مشتركاً بين الإدارة البريطانية والمنظمة الصهيونية العالمية التي كان مقرها الرئيسي طوال فترة الانتداب في لندن. أسألكم: هل يمكن تخيّل جواهر لآل نهرو، أو جومو كينياتا، أو سعد زغلول ينشطون ضد بريطانيا من مقارٍ رئيسية في لندن؟ لقد كان "الييشوف" في فلسطين امتداداً، فَيْضاً عن، وحرفياً، مخلوقاً أوجدته المنظمة الصهيونية العالمية ومؤسساتها المالية القائمة فيما وراء البحار.

● لقد كانت الأغلبية الساحقة من أعضاء المنظمة الصهيونية العالمية (حملة الشيكل) موجودة في الشتات. فمن أصل 2.16 مليون عضو في وقت انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي في سنة 1946، عشية إقامة الدولة اليهودية، لم يكن يتجاوز عدد الأعضاء في فلسطين الـ 300.000 عضو، كما أن الأعضاء الأميركيين، وعددهم 956.000 عضو، كانوا ثلاثة أضعاف الأعضاء اليهود من فلسطين. ولم يكن الجزء الأكبر من دخل "الييشوف" في أي وقت من الأوقات، ناتجاً من عمله هو، وإنما أتى دائماً من وراء البحار، في معظمه من الطائفة اليهودية الأميركية.

● منذ سنة 1917، ارتكز ميزان القوى في فلسطين على ثلاثة عناصر: المحتل البريطاني، والفلسطينيين، و"الييشوف". وكان التطور الأخطر خلال أعوام الانتداب وحتى سنة 1948، هو النمو المتواصل والمثابر لـ "الوطن

القومي اليهودي" تحت الحماية البريطانية، والتغير المتراكم الناجم عن ذلك في ميزان القوى بين الفلسطينيين و"الييشوف" لمصلحة هذا الأخير. وكان "الييشوف"، كلما ازداد إحساسه بالقوة، توطد مزاجه الاسترادادي (Reconquista) وطرائق عمله لترسيخ احتلاله وتوسعه.

● في وقت مبكر من سنة 1920، قرر بن – غوريون وزملاؤه في الحركة العمالية أنهم يحتاجون إلى جيش سرّي، الهاغاناه، استناداً إلى الافتراض الواقعي أن تحويل بلد، أغلبية السكان الساحقة فيه عربية، إلى وطن قومي يهودي، يتطلب قوة عسكرية مباشرة قد لا تكون الحكومة البريطانية راغبة دائماً في توفيرها. وكلمة "هاغاناه" تعني بالعبرية، كما هو معروف، "دفاع ذاتي". ويعتقد شبتاي تيفيت، المرجع الأهم فيما يختص ببن – غوريون، أنه بفضل الهجرة اليهودية الجماعية من أوروبا تحت الحماية البريطانية، شعر بن – غوريون، بحلول سنة 1936، بأن "الييشوف" بات قوياً لدرجة أنه يستطيع الكف عن أي حوار سياسي مع الفلسطينيين. ويصف بن إليعيزر، عالم الاجتماع الإسرائيلي اللامع، بتفصيل دقيق، نمو الروح العسكرية في "الييشوف" على المستوى الشعبي منذ منتصف الثلاثينيات فصاعداً.

● أدى القلق العربي، والخوف من الوطن القومي اليهودي الآخذ في التعاظم، والذي شهدت عليه لجان التحقيق الملكية البريطانية المتعاقبة، إلى الانفجار الذي عبرت عنه ثورة 1936 – 1939 الفلسطينية. كما أن القمع الوحشي للثورة، والذي قام به الجيش البريطاني، وكذلك القتل والشنق والعقوبات الجماعية، وتفكيك المنظمات السياسية الفلسطينية، واعتقال القادة الفلسطينيين ونفيهم، وتجريد الفلاحين بإحكام منهجي من أسلحتهم، كل ذلك قلب جذرياً، وإلى غير رجعة، ميزان القوى لمصلحة "الييشوف" اليهودي.

● ومع حلول سنة 1939، كانت بريطانيا قد أنشأت جيشاً كولونيالياً يهودياً إضافياً (رديفاً للهاغاناه) مكوناً من 20.000 مقاتل، قامت بتسليحه وتدريبه وتوفير ضباط لقيادته، وذلك من أجل أن يعاونها على قمع الثورة الفلسطينية. وقد أطلقت على هذه القوة العسكرية اسماً باهتاً هو "شرطة المستعمرات اليهودية" (Jewish Settlement Police - JSP)، لكنها كانت في الحقيقة جيشاً إقليمياً (territorial) بريطانياً نظامياً أُنشئ على غرار الجيش الإقليمي في المملكة المتحدة المعد للتصدي لأي غزو للجزر البريطانية. هذا الجيش اليهودي الرسمي الجديد، مع إضافة جيش الهاغاناه السرّي "غير الرسمي" والمكون من 30.000 مقاتل، جعل "الييشوف"، البالغ تعداده حينئذ أقل من نصف مليون نسمة، واحداً من أكثر المجتمعات عسكرة في العالم.

● وفي سنة 1937 أوصت اللجنة الملكية برئاسة اللورد بيل (Peel)، لأول مرة، بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأُخرى عربية، على أن يضم شرق الأردن الدولة العربية إليه. ومثل أم الطفل الحقيقية أمام سليمان، اعترى الفلسطينيين غضب عارم على اقتراح تمزيق بلدهم، أججه توصية اللجنة بـ "ترحيل" (ترانسفير) قسري للفلسطينيين من الدولة اليهودية المقترحة من أجل إفساح المجال أمام مهاجرين يهود.

● واستنكاراً لهاتين التوصيتين، اندلعت الثورة الفلسطينية مجدداً ضد بريطانيا وبلغت ذروتها في 1938 – 1939، غير أن اقتراح الترحيل القسري لاقى استحساناً شديداً لدى القيادة الصهيونية، وأثار شهيتها، وزاد من حدّة ميلها إلى تحقيق أهدافها بالإكراه. وفي الحقيقة، كان مفهوم "ترحيل" (تعبير مخفف عن الطرد) الفلسطينيين متداولاً في أروقة الصهيونية قبل فترة طويلة من اقتراح لجنة بيل، كما وثّق ذلك نور مصالحة.* وهناك دليل على أن لجنة بيل ناقشت موضوعي الترحيل والتقسيم مع الزعيم الصهيوني حاييم وايزمن سراً، قبل أن تنشر اللجنة تقريرها، وأنه هو الذي أوحى لها بهما.

● استمر مفهوم الترحيل في احتلال مكانة بارزة في التفكير الاستراتيجي لدى النخبة العسكرية والسياسية في "الييشوف" – كما لا يزال مستمراً حتى اللحظة في تفكير كثير من الإسرائيليين. وممّا لا شك فيه أن فكرة الترحيل – كما يوضح ذلك كتاب إيلان بابه في الموضوع* – كانت في صلب تطبيق الخطة دالتْ خلال القتال في حرب 1948 بعد أن قدم قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة في تشرين الثاني/نوفمبر 1947 للصهيونية الحجّة الزائفة للادعاء بأن ما تقوم به إنما هو دفاع عن النفس.

● كانت إحدى السمات الأساسية للسياسة البريطانية في فلسطين تعليق الديمقراطية وكل ما يمتّ إلى الحكومة التمثيلية بصلة. ولم يكن ذلك مجرد سمة من السمات المعتادة التي اتصفت بها السياسات الكولونيالية في كل مكان، بل كان بالتأكيد جزءاً لا يتجزأ من صميم تكوين الوطن القومي اليهودي وتطويره. ولا يخفى على أحد أن تجاهل "رغبات وتحيز العرب" الذي أشار إليه بلفور في سنة 1919 مؤداه تجاهل "رغبات وتحيز" الأغلبية الساحقة من سكان فلسطين من العرب. وهكذا، فإن الدولة (أي إسرائيل) التي لا يكل الساسة في العواصم الغربية اليوم عن

امتداحها بصفتها "الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط" ولدت في فلسطين بالضبط من خلال قبر الديمقراطية ريثما يتم تحقيق أغلبية مصطنعة عن طريق هجرة قسرية لملايين اليهود من وراء البحار إلى البلد. وفي سنة 1935، صوّت أقدم البرلمانات (القابع في لندن)، بأغلبية ساحقة ضد اقتراح لوزارة المستعمرات البريطانية يقضي بإنشاء مجلس تشريعي في فلسطين كان من شأنه أن يوفر مجرد شَبَه بعيد بحكم تمثيلي، وذلك خشية احتمال أن يؤثر سلباً في نمو الوطن القومي اليهودي المضاد، حكماً، للديمقراطية.

V

● بعد أن قمعت بريطانيا الثورة الفلسطينية التي قامت ضد التقسيم والترحيل القسري، شرعت في إعادة النظر في مجمل سياستها في فلسطين. ومع تزايد النُذُر باقتراب الحرب العالمية الثانية، تزايد الشعور لديها بأن دعمها الصهيونية سيكون له تأثير سلبي في علاقاتها بالعالمين العربي والإسلامي. بناء على ذلك، دعت بريطانيا في سنة 1939 إلى مؤتمر في لندن حضره مندوبون من الأقطار العربية ومن فلسطين وقادة صهيونيون، واجتمعت الحكومة البريطانية بكلا الطرفين على حدة.

● بعد انتهاء المؤتمر أصدرت الحكومة البريطانية وثيقة حددت فيها سياستها المقبلة تجاه فلسطين (الكتاب الأبيض لسنة 1939)، وتضمنت وضع سقف للهجرة الجماعية إلى فلسطين ولانتقال الأراضي الفلسطينية إلى أيدٍ صهيونية، كما تركت الباب مفتوحاً أمام فلسطين موحدة، أي غير مقسمة، إنما مرهونة برضى الطرفين. وكانت تلك محاولة بريطانية متأخرة جداً لأن تكون "متوازنة". لكن "التوازن" البريطاني، وقتئذ كما هو الحال الآن بالنسبة إلى أي "توازن" أميركي إن وُجد، ليس هو ما يُطرب الصهيونية. وكان الكتاب الأبيض بداية الافتراق بين لندن و"الييشوف".

● إن إحدى السمات المميزة للصهيونية كحركة قومية هي اعتمادها على عرّابين كولونياليين وسهولة تخلّيها عن عراب ما وانتقالها إلى آخر.

● بعد فترة وجيزة من صدور الكتاب الأبيض في سنة 1939، التقى بن – غوريون وزير المستعمرات البريطاني مالكولم ماكدونالد. وفي أثناء النقاش العاصف بينهما، سأل ماكدونالد بن – غوريون إلى متى تستطيع بريطانيا، في اعتقاده، حماية "الييشوف" بالحراب البريطانية، وكان جواب بن – غوريون أن "الييشوف" ما عاد بحاجة إلى حراب بريطانيا. وعندما قال ماكدونالد إن جيشاً عراقياً نظامياً يمكن أن يهاجم "الييشوف" من ناحية الشرق، أجاب بن – غوريون: "عبور البحر أسهل من عبور الصحراء." وكان بن – غوريون يقصد بقوله هذا، بالطبع، الجماعات اليهودية ما وراء البحار، وخصوصاً تلك الموجودة في الولايات المتحدة.

● لم يطل الوقت حتى استبدل "الييشوف" بريطانيا بالعرّاب الجديد: الولايات المتحدة، وتكرس الانتقال رسمياً في "برنامج بِلْتمور" (Biltmore) لسنة 1942. وقد عُرف البرنامج بهذا الاسم لأن إعلانه تمّ في فندق بِلْتمور في نيويورك، في اجتماع عام، عُقد بناء على طلب من بن – غوريون، وضم جميع القادة اليهود الأميركيين.

● وطالب البرنامج بهجرة جماعية يهودية غير مقيدة إلى فلسطين، بعد الحرب العالمية الثانية، بإشراف المنظمة الصهيونية العالمية حصراً، وبإعلان فلسطين بأسرها "كومُنولثاً" يهودياً – وهذه تسمية مشفّرة لـ "دولة – يهودية". أمّا مغزى البرنامج فكان حرباً سياسية معلنة ضد بريطانيا، وحرباً كليّة ضد الفلسطينيين.

● لقد كان برنامج بِلْتمور عملاً استراتيجياً فذّاً من جانب بن – غوريون. فهو ألزم المؤسسة اليهودية الأميركية ومواردها بتأييد مسار صدامي مع بريطانيا والفلسطينيين، وفي الوقت نفسه عالج نفور هذه المؤسسة من هجرة جماعية يهودية ضخمة بعد الحرب إلى الولايات المتحدة نفسها خوفاً من هيجان المشاعر اللاسامية الكامنة لدى الأغيار الأميركيين.

● عُقد مؤتمر بلتمور في أيار/مايو 1942، قبل أن تظهر التفصيلات المروّعة للهولوكوست في تشرين الثاني/نوفمبر من تلك السنة. وما إن عُرفت هذه التفاصيل حتى استغلها خصوم بن – غوريون المحلّيون في "الييشوف"، في اليمين "التصحيحي" (Revisionist)، ولا سيما امتداداته الإرهابية المتمثلة في عصابتي الإرغون وشتيرن، من أجل تصعيد العداء ضد بريطانيا كي يحرجوا الحركة العمالية بزعامة بن – غوريون ويزايدوا عليها.

● في سنة 1944 تزعم الإرغون قائد جديد – مناحِم بيغن، البولندي الآتي من بريست – ليتوفسك. وكان بيغن قائد "بيتار" (BETAR)، المنظمة التصحيحية شبه العسكرية في وارسو، لكنه هرب من المدينة عند اقتراب الجيش

الألماني منها. وقد اعتقله الروس بعد هروبه في سنة 1939، وأفرجوا عنه في سنة 1941، فيمن أُفرج عنهم من البولنديين بعد الهجوم الألماني العام على الاتحاد السوفياتي. ووطئت قدماه أرض فلسطين لأول مرة في أيار/مايو 1942. وتولى قيادة الإرغون ليبدأ العمليات العسكرية ضد البريطانيين بناء على طلب وفد من اليهود التصحيحيين الأميركيين جاء إلى فلسطين لهذا الغرض.

● وهذا ما فعله بيغن في شباط/فبراير 1944، في وقت كانت القوات البريطانية تقاتل الفرق المدرعة النازية في ليبيا وتونس وإيطاليا، وتتأهب للنزول على شواطئ النورماندي. واستمرت العمليات الإرهابية ضد البريطانيين بوتيرة متصاعدة، ومن دون هوادة، حتى انتهاء الانتداب البريطاني في أيار/مايو 1948.

● قبل سنة 1944، كان الإرهاب اليهودي موجهاً حصراً ضد المدنيين الفلسطينيين، ولا سيما في الفترة 1937 – 1939. وخلال تلك الفترة أدخل الإرهاب اليهودي إلى الشرق الأوسط لأول مرة التكتيك الشيطاني المتمثل في وضع ألغام موقوتة في مواقف الباصات العربية، وأسواق الخضار والمقاهي، ومتفجرات مخبأة في صفائح كيروسين، وأوعية حليب، وسلات فواكه، تنفجر بفعل صاعق كهربائي.

● واعتباراً من سنة 1944 فصاعداً، راحت الإرغون وشتيرن تستخدمان هذا التكتيك ضد أهداف بريطانية، مع تطوير أدوات أكثر تنوعاً وتعقيداً وأشد فتكاً.

VI

● لا مجال هنا للدخول في تفصيلات تسلسل الأحداث التي أدت إلى تخلي بريطانيا المخزي عن القيام بالمسؤوليات المتوجبة عليها في فلسطين، لكن الشخص المركزي بلا منازع في هذه الأحداث هو زعيم "الييشوف" دافيد بن – غوريون الذي كان من دون شك القائد السياسي الأقدر والأكفأ بين قادة الشرق الأوسط كافة في الأربعينيات والخمسينيات.

● برع بن – غوريون في تحديد أولوياته، فلم ينجرف مع الإرغون وشتيرن في هجماتهما ضد البريطانيين لأنه أدرك بحدسه وبصيرته أن العدو الحقيقي لم يكن بريطانيا، وإنما الفلسطينيين والعرب. ومع التزام المؤسسة اليهودية الأميركية برنامج بلتمور، كما أسلفنا، أصبح البريطانيون، بالنسبة إلى بن – غوريون، عنصراً فائضاً عن الحاجة، وعقبة كأداء يجب إزاحتها من دربه.

● في هذه الأثناء، كانت قوة "الييشوف" العسكرية قد تعاظمت كل التعاظم، إذ تلقّى نحو 25.000 يهودي من فلسطين منذ سنة 1939 تدريباً عسكرياً نظامياً في الجيش البريطاني في مصر، الذي كان يُعد للتصدي للقوات الألمانية الزاحفة عبر ليبيا نحو السويس. وهكذا، في سنة 1945، لدى نهاية الحرب العالمية الثانية، دقّت الساعة لإقامة الدولة اليهودية، على أوسع رقعة ممكنة من تراب فلسطين. وكان لا بد من طرد بريطانيا من فلسطين، لكن ليس بعمل عسكري مباشر تقوم به القوات اليهودية "الرسمية" (الهاغاناه) تحاشياً لصدام عسكري مدمّر لها مع الجيش البريطاني المرابط في البلاد.

● واشتملت استراتيجيا بن – غوريون الفذّة لإخراج بريطانيا من فلسطين على:

– أولاً، تعبئة المؤسسة اليهودية الأميركية لتوجيه ضغط مثابر على واشنطن كي تقوم هذه بدورها بتوجيه ضغط مثابر على لندن؛

– ثانياً، هجرة يهودية غير شرعية ضخمة من أوروبا لبقايا الجوالي اليهودية فيها بتمويل أميركي يهودي لكسر قيود الكتاب الأبيض (1939) المفروضة فيه على الهجرة، وإرباك حرس السواحل التابع لإدارة الانتداب البريطاني، وإنهاك الأسطول الملكي في البحر الأبيض المتوسط الخارج من الحرب منهكاً أصلاً.

– ثالثاً، حملة دعائية عالمية للتشهير ببريطانيا بحجة أنها تمنع من دون شفقة أو رحمة وصول "الناجين" من المحرقة النازية إلى شواطئ فلسطين، التي صُوِّرت على أنها المكان الوحيد في هذا العالم الواسع الشاسع القادر على قبولهم واستيعابهم.

– رابعاً، صوغ خطة "تقسيم" لفلسطين قائمة على برنامج بِلْتمور إياه من أجل كسب دعم الرئيس الأميركي الجديد غير المنتخب هاري ترومان، الذي شغل البيت الأبيض في إثر وفاة فرانكلين د. روزفلت في سنة 1945، والذي كان يواجه انتخابات رئاسية في تشرين الثاني/نوفمبر 1948.

– وأخيراً، غض النظر عن تصعيد عصابتي الإرغون وشتيرن حملتهما الإرهابية الضارية ضد بريطانيا لدفعها أكثر فأكثر في اتجاه المخرج (EXIT) من فلسطين.

● حققت استراتيجيا بن – غوريون نجاحاً باهراً، وطُردت بريطانيا طرداً، وذُلّت إذلالاً من جانب رضيع تبنّته حتى كبُر واشتد ساعده تحت حماية حرابها.

● وتضمنت الابتكارات الإرهابية اليهودية المتفشية الآن في الشرق الأوسط فيما تضمنت ضد الجيش والإدارة البريطانيين في فلسطين، طروداً بريدية ملغومة، وعربات مفخخة بالمتفجرات، وحقائب سفر مفخخة، ورسائل بريدية ملغومة. وبحسب صحيفة "التايمز" اللندنية، أرسلت خلال سنة 1947 الرسائل المفخخة (التي جرى اعتراضها من جانب سكوتلاند يارد) إلى كل من: إرنِست بيفن، وزير الخارجية؛ أنتوني إيدن، وزير الخارجية السابق؛ السير ستافورد كريبس، وزير التجارة؛ جون ستراشي، وزير التموين؛ آرثر غرينوود، الوزير بلا حقيبة.

● وشملت الابتكارات اليهودية الإرهابية أيضاً: أخذ ضباط بريطانيين في فلسطين رهائن، وجلدهم بالسياط (لأول مرة في تاريخ الجيش البريطاني على امتداده)، وخطف رقباء عسكريين وشنقهم، وتفخيخ جثثهم المعلقة بحبال الشنق (أيضاً لأول مرة في تاريخ الجيش البريطاني المديد).

● وكان العقلان المدبران لهذه العمليات، مناحِمْ بيغن وإسحق شامير، وأصبح كلاهما لاحقاً رئيساً لوزراء إسرائيل – منارتين ونموذجين مثاليّين للتسيبيين (نسبة إلى تسيبي ليفني وزيرة خارجية إسرائيل) والبيبيين (نسبة إلى بيبي نتنياهو) الذين حياهم جورج دبليو بوش وغوردون براون في خطابيهما في الكنيست بمناسبة الذكرى الستينية لتأسيس إسرائيل.

● كان عديد الجيش البريطاني في أعوام الانتداب الأخيرة 100.000 جندي، أي: محارب واحد بريطاني نظامي متمرس بالقتال في الحرب العالمية الثانية في مقابل كل 3 أشخاص بالغين في "الييشوف" (البالغ عدده وقتئذ 625.000 شخص). وكان في وسع هذا الجيش سحق الإرغون وشتيرن والهاغاناه معاً بسهولة فائقة، لكن يديه كانتا مكبلتين إلى حد كبير من جانب هاري ترومان سلف جورج دبليو بوش في البيت الأبيض. واللافت أن ما بين سنة 1945 وقرار التقسيم لسنة 1947، كانت نسبة قتلى البريطانيين في مقابل قتلى الإرهابيين اليهود 1:4، أو 170 بريطانياً عسكرياً ومدنياً في مقابل 44 يهودياً إرهابياً. وهذه نسبة لا مثيل لها عبر التاريخ في الحروب الكولونيالية كافة، كما نعرف جيداً من أحداث غزة الأخيرة.

سيداتي سادتي:

● كان قرار التقسيم الصادر في 29 تشرين الثاني/نوفمبر 1947 عن الجمعية العمومية للأمم المتحدة بمثابة الضوء الأخضر للقوات اليهودية باحتلال البلاد. وما تلاه لا يمكن وصفه بأنه عمليات عسكرية لجيش ضد جيش آخر. لم يكن هناك جيش فلسطيني. وعلى الجانب اليهودي، لم يكن هناك مجرد جيش وإنما "أمة زاحفة" على غرار أراغون وكاستيل، متجهة لـ "استرداد" ما اعتبرته أرض "أسلافها" من "الغرباء" الفلسطينيين المقيمين فيها بصورة غير شرعية وفقاً للأوامر العملانية في "خطة دالِتْ"، ووفقاً لخطة إلهية بحسب جورج دبليو بوش وغوردون براون.

* * *

سيداتي سادتي

● من سخرية الأقدار – بل أم السخريات – أن بن – غوريون أمضى سنة 1916 باحثاً في تاريخ فلسطين – ويا للعجب – في المكتبة العامة (New York Public Library) في نيويورك. وكان من أهم الاستنتاجات التي خلص إليها نتيجة أبحاثه، أن الفلاحين الفلسطينيين هم الذرّية الحقيقية للعبرانيين القدامى.

(*) محاضرة ألقيت بالإنكليزية في مؤتمر جمعية الطلبة الفلسطينيين الذي عُقد في معهد الدراسات الشرقية والإفريقية (SOAS) التابع لجامعة لندن، بتاريخ 21 شباط/فبراير 2009، بمناسبة مرور 60 عاماً على النكبة، وعنوانه "ستون عاماً من الاستلاب والمقاومة".

ترجمة: أحمد خليفة.

(*) أنظر:

Walid Khalidi, “Plan Dalet”, *Middle East Forum*, November 1961; Walid Khalidi, “Plan Dalet Revisited”, *Journal of Palestine Studies 69*, vol. XVIII, no. 1 (Autumn 198).

(*) أنظر: وليد الخالدي، "خمسون عاماً على حرب 1948" (بيروت: دار النهار، 1998).

(*) نور الدين مصالحة، "طرد الفلسطينيين: مفهوم (الترانسفير) في الفكر والتخطيط الصهيونيين، 1882 – 1948" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1992).

(*) إيلان بابهْ، "التطهير العرقي في فلسطين" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2007).

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx